

قصيدة يا كوكبا ما كان أقصر عمره

رثى الشاعر التهامي ولده وتعتبر هذه القصيدة من أروع قصائد هذا الشاعر، حيث يقول فيها:

حكّم المنية في البرية جار
بيننا يرى الإنسان فيها مُخبراً
طُبِعَتْ على كَدْرِ وأنت تريدها
ومكفّ الأيام ضدّ طباعها
وإذا رجوت المستحيلَ فإنّما
فالعيشُ نومٌ والمنيةُ يقظةٌ
فاقضوا ما ربكم عجلاً إنّما
وتراكضوا خيلَ الشبابِ وبادروا
فالدهر يخدع بالمنى ويُغصّ إن
ليس الزمانُ وإن حرصتَ مسالماً
إني وتزّت بصارمِ ذي روثي
أنتي عليه بأثره ولو أنّه
يا كوكباً ما كان أقصرَ عمره
وهلالَ أيامِ مضي لم يستدِرْ
عجّلَ الخسوفِ عليه قبل أوانه
واسئلُ من لأقرانهِ ولداته
فكأنّ قلبي قبره وكأنّه
إنّ تحقّرتَ صغيراً فربّ مُفحّم
إنّ الكواكبِ في علوّ محلّها
ولّد المعزّي بعضه فإذا مضي
أبكيه ثمّ أقولُ معتذراً له
جاورتُ أعدائي وجاورَ ربّه
أشكو بعادك لي وأنت بموضعٍ
ما الشرقُ نحو الغربِ أبعدَ شقّةً
هيهات قد علقتك أسبابُ الردى

ما هذه الدنيا بدار قرار
حتّى يُرى خبراً من الأخبار
صفواً من الأقداء والأكدار
متطلّب في الماءِ جذوة نار
تبني الرجاء على شفيرِ هار
والمرءُ بينهما خيالٌ سار
أعماركم سقرٌ من الأسفار
أن تُسنردّ فإنّهنّ عوار
هنّا ويهدم ما بنى ببوار
خُلِقَ الزمانُ عداوةً الأحرار
أعدته لطلابية الأوتار
لو يُعْتَبَطُ أثنيث بالآثار
وكذا تكون كواكبُ الأسحار
بدرأ ولم يُمهّل لوقتِ سِرار
فغطّاه قبل مَظنّة الإبدار
كالمقلّة استنّت من الأشفار
في طيّه سِرٌّ من الأسرار
يببدو ضئيلَ الشخص للنظار
لنرى صِغاراً وهي غيرُ صغار
بعضُ الفتى فالكلُّ في الآثار
وُقِفَتْ حينَ تركتَ الأم دار
شتانَ بين جواره وجواري
لولا الردى لسمعت فيه سِراري
من بُعد تلك الخمسة الأشبار
وأبادَ عمرك قاصمُ الأعمار

فبلغتها وأبوك في المضمار
وإذا سكتت فأنت في إضماري
يُخفي من النار الزناد الواري
وأكفكف العيرَات وهي جوار
غُلب التصبُّر فارتمت بشرار
وارٍ وإن عاصيته متوار
فإذا التحفت به فإتكَ عار
أم صوّرت عيني بلا أشفار
عند اغتماض الطرف حدُّ غرارٍ
ما بين أجفاني من النيار
ويُميتهنَّ تبلُّج الأسحار
سيلٌ كما فطفا على النوار
منا بُحرَ عواملٍ وشفار
ثم انثثوا فبنوا سماء غبارٍ
سُحباً مزررةً على أقمار
خُلجٌ نمدُّ بها أكفُّ بحار
طعنوا بها عَوْضَ القنا الخطارِ
في كلِّ آنٍ نُجعةُ الأمطارِ
بين السروج هناك والأكوار
وعُمودٌ أنصُلهم سراب قفار
ماء الحديد فصاعَ ماء قَرار
بحبابيةٍ في موضع المسمار
وتقنَّعوا بحباب ماء جار
والأسدُ ليس تدين بالإيثار
بالمُنْفِسات تعطُّف الأطار
كتزيُّن الهالات بالأقمار
وكرُمُن فاستغنى عن الأنصار

ولقد جريت كما جريت لغايةٍ
فإذا نطقت فأنت أول منطقي
أخفي من البرحاء ناراً مثل ما
وأخفُّضُ الزفَرات وهي صواعدُ
وأكفُّ نيران الأسر ولربما
وشهاب رند الحزن إن طاوعته
ثوب الرناء يشفُّ عما تحته
قصرت جفوني أم تباعد بينها
جفت الكرى حتى كأن غراره
ولو استعارت رقدةً لدحا بها
أحبي ليالي التيم وهي ثمينتي
والصبح قد غمر النجوم كأنه
لو كنت تُمنع خاض دونك فتيةً
فدحوا فويق الأرض أرضاً من دمٍ
قومٌ إذا لبسوا الدروع حسبتهَا
وترى سيوف الدار عين كأنها
لو أشرعوا أيمانهم من طولها
شوس إذا عديموا الوغى انتجعوا لها
جنبوا الجياد إلى المطيِّ فراوحوا
وكأنهم ملأوا عياب دروعهم
وكأنما صنَّع السوابغ غرّه
زرداً وأحكم كلَّ موصل حلقه
فندرَّعوا بمتون ماءٍ راكدٍ
أسدٌ ولكن يؤثرون بزادهم
يتعطفون على المجاور فيهم
يتزيُّن النادي بحسن وجوهم
من كلِّ من جعل الطي أنصاره

والليثُ إن ساورتَهُ لم يَنكَل
وإذا هو اعتقل القناة حسبَتها
زَرَدُ الدَّلاصِ من الطَّعانِ برمحِه
ويجرُّ ثمَّ يجرُّ صعْدَةَ رِمحِه
ما بين ثوبٍ بالدِّماءِ مُضَمَّخِ
والهُونُ في ظلِّ الهُوَيْنَا كامنٌ
تندى أسِرَّةُ وجهِه ويمينهُ
يحوي المعالي خالِباً أو غالباً
ويمدُّ نحو المَكْرَمَاتِ أناملاً
قد لاحَ في ليلِ الشبابِ كواكبٌ
وتأهَّبُ الأحشاءِ شيبَ مَفرقي
شَابَ القَدالُ وكلُّ غصنِ صائرٌ
والشبهه منجذبٌ فلمَ بيضُ الدُّمى
وتودُّ لو جعلتُ سوادَ قلوبها
لا تنفر الطَّبَّياتِ منه فقد رأت
شيانَ ينقشعانِ أوَّلَ وهلةِ
لا حبَّذا الشيبُ الوفيُّ وحبَّذا
وطَّري من الدُّنيا الشبابِ وروقهُ
قَصْرَتْ مسافنتُهُ وما حسناتُهُ
نزداد همًّا كلما ازددنا غنى
ما زاد فوق الزادِ خُلِفَ ضائعاً
إني لأرحم حاسديَّ لحرِّ ما
نظروا صنيع الله بي فعيونهم
لا ذنبَ لي قد رمتُ كتمَ فضائلي
وسترتها بتواضعي فتطلَّعت
ومن الرجالِ جاهلٌ ومعالمٌ
والناسُ مشتبهون في إيرادهم

إلّا على الأنبياءِ والأظفار
صِلاً تَأبَّطُهُ هَزَبُ ضار
مثل الأساور في يد الإسوار
في الجحفلِ المتضايقِ الجرَّار
خَلَقِ ونفعِ بالطِّرادِ مُثار
وجلالةُ الأخطارِ في الإخطار
في حالةِ الإعسارِ والإيسار
أبدأ يُدارى دونها ويُدارى
للرزقِ في أثنائهنَّ مجار
إن أمهلتُ آلتُ إلى الإسفار
هذا الضياءُ شواطئُ تلك النار
فَيَنانُهُ الأحوى إلى الأزهار
عن بيضِ مفرقه ذواتُ نفار
وسوادَ أعينها خِصابَ عِذاري
كيف اختلافُ النبتِ في الأطوار
ظلُّ الشبابِ وصُحبةُ الأشرار
شرحُ الشبابِ الخائنِ العِدَّار
فإذا انقضتْ فقد انقضتْ أوطاري
عندي ولا آلوهُ بقصار
فالفقر كلُّ الفقرِ في الإكثار
في حادثٍ أو وارثٍ أو عار
ضمَّتْ صدورهمُ من الأوغار
في جنَّةٍ وقلوبهم في نار
فكأنني بَرَقَعْتُ وجهَ نهار
أعناقها تلعو على الأستار
ومن النجومِ غوامضٌ ودراري
وتبايُنُ الأقوامِ في الإصدار

فعمُوا ولم يطأوا على آثاري
لكنها عميت عن الإبصار
أو سلّموا لمواقع الأقدار
وتصرّما إلّا من الأشعار
حتّى اتّهمنا رؤية الأبصار
لا خير في يمنى بغير يسار
صدأ اللّنام وصيقل الأحرار

عمري لقد أوطأهم طرّق العلى
لو أبصروا بعيونهم لاستبصروا
ألا سعوا سعي الكرام فأدركوا
ذهب التكرّم والوفاء من الورى
وفشت جنایات الثقات وغيرهم
ولربّما اعتضد الحليم بجاهل
بلى دُرّ النائبات فإنّها